

هود عبد المؤمن بن علي الكومي التلمساني
في إنهاء الحكم النورماندي بالمهدية عام 555هـ/1160م.
من خلال نصوص المصادر الإسلامية

د. / رشيد تومي
قسم التاريخ - جامعة الجزائر

- مقدمة
- أوضاع مملكة صقلية النورماندية قبل غزو المهدية
- دواعي تحرك عبد المؤمن لاسترجاع المهدية
- التحضيرات للحملة
- الأهمية الإستراتيجية للمهدية - موقعها وحصانتها -
- فتح عبد المؤمن لمدينة المهدية - ظروفه ومراحله -
- نهاية الحكم النورماندي بالمهدية
- الخاتمة.

في يوم الاثنين، الثاني من شهر صفر عام 543هـ/22 جوان 1148م استولى الملك النورماندي روجر الثاني على مدينة المهديّة^(*)، قاعدة الحكم الزيري بإفريقية^(**)، وحوّلت إلى مستعمرة نورمانديّة حسّاسة في بلاد الإسلام. وشكّل هذا الحدث انتصاراً باهراً لهذا الملك، وتجسّداً لسياسته الخارجيّة في عالم المتوسط، الرامية إلى بسط سيطرته على هذا الفضاء، تأميناً لمصالحه الحيويّة، الاقتصاديّة منها والإستراتيجيّة. ويُمثّل أيضاً، عودة ملموسة للنفوذ المسيحي الذي اختفى من شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي/الثاني هجري.

وقد استمرّت سيادة النورمان على مدينة المهديّة، إلى أن هبّت رياح التحرير من المغرب الأقصى، حيث زحف عليها الخليفة الموحي، عبد المؤمن بن علي الكومي^(***)، في حملة عسكريّة كاسحة، توجّت باسترجاعها سنة 555هـ/1160م بعد أن دام حكم النورمان لها اثنتي عشرة سنة، وندرج هذه الحملة في إطار نشاط عبد المؤمن خارج المغرب الأقصى والرامي إلى بسط نفوذ وسيطرة الموحيين على بلاد المغرب كلّها. وكان فتح المهديّة أهم إنجاز عسكري وسياسي حققه عبد المؤمن في المغرب الأوسط وإفريقية⁽¹⁾، نظراً لأهمية المدينة

1- خدث المصدر المذكور أعلاه عن فتوحات عبد المؤمن بعد وفاة المهدي بن تومرت في بلاد المغرب الأوسط والأدنى.

أنظر أيضاً :

Hady(Roger Idris), La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe-XIIIe Siecles, Librairie D'Amérique et d'orient, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1962, Tome Premier.

(*) عن هذه المدينة. ورد الشرح الآتي في كتاب «معجم البلدان». لياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوفى عام 626هـ/1228م : «وهذه المدينة بإفريقيّة منسوبة إلى المهدي -عبيد الله الذي ينسب إلى أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمّد بن إسماعيل الأكبر بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. قدم إفريقيّة فملكها وأقام بالقبروان مدة ثمّ خطّ المهديّة وهي على ساحل بحر الروم داخله فيه ككف يد زند». إذن، المهديّة تقع على ساحل المتوسط. في الجنوب الشرقي لمدينة تونس. المصدر المذكور. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. 1410هـ/1990م، ج.5، ص.266.

(**) عن حدودها الجغرافيّة قال ياقوت الحموي : «وحّد إفريقيّة من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندريّة إلى بجاية، وقيل : إلى ملّانة». معجم البلدان، الجزء الأوّل، ص.271.

الاستراتيجية وانعكاساته على الوضع الجيوسياسي في الحوض الغربي للمتوسط. ذلك أن هذا الفوز الإسلامي الباهر، يشكل نقطة تحوّل في تاريخ العلاقة الإسلامية النورماندية في غرب المتوسط ويُعتبر كذلك، ضربة قاصمة للمشروع الاستعماري النورماندي في إفريقيا، لأنّه أدّى إلى تصفية الوجود النورماندي على الضفة الجنوبية للمتوسط وذلك بإنهاء سيطرة النورمان على أهمّ القواعد الأمامية لهم في البر الإفريقي الإسلامي، وهي مدينة المهديّة. ويكرّس أيضًا وبشكل ساطع، فشل سياسة الملك النورماندي، غليوم الأوّل (1154-1166م)، في الاحتفاظ بالمكاسب الإقليمية التي أنجزها أبوه روجر الثاني بعد جهد مضن ومكثّف للغاية.

ولا شكّ أنّ هذا الحدث الحاسم الذي انجرّ عنه عودة مدينة المهديّة إلى

(***): ولد عبد المؤمن بمدينة تاجرة من أعمال تلمسان الساحليّة. «كانت ولايته بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع وعشرين وخمسائة هجرية - 1130م - بوصيّة من المهدي... وتلقّب بأمر المؤمنين على ما لقّبه به المهدي قبل وفاته». ويُعتبر عبد المؤمن المؤتس الميداني لدولة الموحّدين التي امتدّت من طرابلس الغرب شرقًا إلى مدينة سلا المغربية غربًا، فضلًا عن تبعيّة أجزاء واسعة لها من الأندلس. من جبل طارق جنوبًا إلى حدود مدينة طليطلة شمالًا. ويعتمد التصرّو العقائدي للموحّدين، على أساس الإيمان بوحدة الله تعالى وعدم اتصافه بالصفات الجسمانيّة. مع وجوب الامتنال لأوامر الله بشكل مُطلق. ويُمثّل القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة، المصدرين الصحيحين لتحقيق هذه الدعوة التي ترمي أساسًا إلى تطهير العقيدة الإسلاميّة من الشوائب التي اعترتها عبر الزمان. بسبب انحراف المرابطين الذين اعتبرهم الموحّدون، مجسّمين. توفي عبد المؤمن عام 558هـ/1163م. عن موضوع الموحّدين. ارجع إلى: أبي بكر بن علي الصنهاجي «المكتنى بالبيّزق» (توفي حوالي سنة 555هـ/1160م): كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ش. و- ن- ت- الجزائر، 1394هـ/1974م: الشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي (المتوفى في سنة 1897م): كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. الدولتان المرابطيّة والموحديّة، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م. الجزء الثاني: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الأستاذ عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م. الجزء الرابع والعشرون: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، «قسم الموحّدين»، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1985م. الجزء الرابع: روجي لي تونزو: حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة الدكتور أمين الطيبي، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا - تونس، 1982م.

محيطها الإسلامي الطبيعي ومن ثمّ طيّ صفحة عهد الحكم النورماندي في إفريقية، قد حظى باهتمام الكتاب المسلمين الذين عاشوا، غير بعيدين تسبيّاً عن فترة وقوع الاحداث، حيث أقبل هؤلاء المؤرّخون على تدوين فعاليات هذا الفتح ومن ذلك تفاوتت درجة معالجتهم لها، فمنهم من تناولها بشيء من الإسهاب والتفصيل مع الالتزام بمختلف مراحل عمليّة فتح المدينة، ومنهم من تعرّض لها باقتضاب واضح بينما اكتفى بعضهم بذكر أهم المحطات المرتبطة بها مع مراعاة الاختصار الشديد.

وضمن هذه الكوكبة الغنيّة، يمكن الإشارة إلى عمادها وهو المؤرّخ ابن الأثير، المتوفّى عام 630هـ/1238م، صاحب كتاب «الكامل في التاريخ». وتعتبر كتاباته أكثر الروايات العربيّة استفاءً للموضوع. وابن أبي دينار القيرواني، وهو من علماء القرن 12م، كتابه: «المؤنس في أخبار افريقية وتونس». وابن عذاري الذي عاش في القرن 7هـ/13م، مؤلفه: «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب». والنويري، المتوفّى عام 733هـ/1333م، عنوان كتابه: «نهاية الأرب في فنون الأدب». وابن خلدون، المتوفّى عام 808هـ/1406م، صاحب التحفة التاريخيّة: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر». والتيجاني، المتوفّى عام 869هـ/1464م، الذي اشتهر بشهاداته المتضمّنة في رحلته. هذا فضلاً عن ثلة أخرى من المؤرّخين العرب الذين أرّخوا لهذا الحدث الفاصل في التاريخ الإسلامي.

لقد تنبّهت المصادر الإسلامية، في سياق معالجتها لهذا الحدث، إلى الظروف التي سادت المملكة النورمانديّة في عهد الملك غليوم الأوّل، ابن وخليفة روجر الثاني، والمشهور بلقب «السيّئ» Guillaume le Mauvais، حيث وُصفت بالرديّة والمضطربة بسبب السياسة السليبيّة للتاج النورماندي، وكان

المسؤول عنها، وزيره وساعده الأيمن المسمى مايون دي باري Maion de Bari⁽²⁾. وشكّلت هذه الأوضاع المزرية، سواء في إيطاليا الجنوبية وصقلية أو في المستعمرات الإفريقية، عامل تشجيع لسكان إفريقية، لإعلان الثورة ضدّ الحكم النورماندي. وقد كشفت نصوص هذه المصادر عن هذا الواقع، وذكرت رواية ابن الأثير في هذا الموضوع. «ولما مات - أي روجر الثاني - ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيئ التصوير فاستوزر مايوا البصريّ فاساء التدبير واختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدّى الأمر إلى إفريقية». وأكد ابن الأثير في موضع آخر، هذه الفكرة بقوله: «فخرج عن حكمه عدّة حصون من حصون صقلية فلما كان هذه السنة - أي سنة 551هـ/1156م - قوي طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه إفريقية»⁽³⁾. وفي نفس السياق قال ابن خلدون: «وولّى مكانه - أي روجر الثاني - ابنه غليالم و كان سيئ السيرة واستوزر مايو البرقياني فاساء التدبير واختلفت عليه حصون من صقلية وبلاد قلورية وتعدّى الأمر إلى أمراء إفريقية على ما ياتي». وكرّر هذه الفكرة على غرار ابن الأثير، فذكر: «وملك ابنه غليالم وأنه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم بإفريقية»⁽⁴⁾. ولا شكّ أنّ هذا

2- كانت ملكة النورمان. ما بين عامي 1155م و 1156م. تواجه أوضاعاً صعبة وخطيرة. مردها تمرد الأسياد النورمان على العرش النورماندي والأزمة الحرجة بين البابوية و الملك غليوم الأول وكذا التهديد الثاني. الصادر عن الاستفزازات الألمانية و البيزنطية. عن تفاصيل هذه الأوضاع ارجع إلى :

Siragusa(G.B.), Il Regno di Guglielmo I in Sicilia, Palermo, 1929, pp. 44- 58 ;

Chalandon(F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Librairie

Alphonse Picard et Fils, Librairie des Archives Nationales et de la Société de l'école des

Chartes, Paris, 1907, Tome Second, p. 167 et Suivantes.

3- الكامل في التاريخ. نقلاً عن أماري (ميخائيل) : المكتبة العربية الصقلية. ليبسك. 1857م. ص-301 300.

4- كتاب العبر وديوان البنداء والخبر نقلاً عن أماري(م) : المكتبة العربية الصقلية. ص503.

العرض لأحوال المملكة الداخلية والخارجية، قد جاءت مختصرة إلا أنها تعبّر بدقة و وضوح عن مرحلة مفصلية يعيشها التاج النورماندي وعن انعكاساتها على مستقبل مستعمراته في إفريقية، مما يدل على إلمام المصدر العربي بما يجري من تطوّرات هامة في البرّ الأوربي.

الواقع أنّ عملية فتح مدينة المهدية من طرف عبد المؤمن، تندرج ضمن سعي هذا الأخير، إلى مدّ نفوذه إلى سائر أرجاء بلاد المغرب. ولعلّ ما شجّعهُ على تسريع زحفه على إفريقية، هو ما تلقاه من صرخات النجدة من لدن الحسن الزيري، صاحب المهدية، الذي لجأ إلى بلاط عبد المؤمن عقب سقوط عرشه في قبضة ملك النورمان، روجر الثاني، عام 543هـ/1148م. وقد عرضت المصادر الإسلامية هذه العلاقة الزيرية الموحدية، وفي ذلك قال ابن أبي زرع الفاسي (المتوفى عام 724هـ/1324م): «فتزل عليه بها العدو الرومي صاحب صقلية وشدّ عليه الحصار حتّى دخلها عنوة -أي المهدية- وذلك بعد أربعين وخمسمائة فهرب الحسن بن علي المذكور الى الجزائر واستوطنها فلمّا وصل عبد المؤمن الى الجزائر بجيوش الموحدين وجد فيها الحسن بن علي المذكور فخرج اليه وبايعه وصاهره عبد المؤمن وحمله إلى مرّاكش فاقام معه الى سنة ثلاث وخمسين...»⁽⁵⁾. وفي هذا الموضوع تميّزت رواية ابن الأثير، ببعض الاختلاف، فذكر أنّ الأمير الزيري، الحسن، ترك مدينة المهدية و معه أهله "قاصداً الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة -شمال تونس- ... فلقيه محرز لقاء جميلاً وتوجّع لما حلّ به فاقام عنده شهوراً والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة الحافظ العلوي واشترى مركباً لسفره فسمع جرجي الفرنجي - قائد الأسطول النورماندي -

5- الأنبس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس. نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقلية. ص 403.

فجهّز شواني لتأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب...⁽⁶⁾». و قدّم ابو الفداء إضافة، تخصّ رحلة الحسن، حيث ورد فيها : «فسار إلى ملك بجاية يحيى بن العزيز من بني حماد، فوكل يحيى المذكور على الحسن وعلى اولاده من يمنعهم من التصرف. ولم يجتمع يحيى بهم، وانزلهم في جزائر بني مزغان. وبقي الحسن كذلك حتّى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع واربعين وخمسائة... فحضر الامير الحسن عنده، فأحسن اليه عبد المؤمن واكرمه. واستمر على ذلك في خدمة عبد المؤمن الى ان فتح المهديّة⁽⁷⁾». وأمّا نصّ التيجاني في هذا الشأن، فيبدو أنّه مقتبس من رواية ابن الأثير، لتطابقه معها فيما أضاف الفكرة الآتية : « وأمّا الحسن فأنّه اقام بمراكش الى ان عاد عبد المؤمن اليها فلم يزل يغريه بالحركة الى إفريقية ويحضّه على استنقاذ المهديّة من ايدي النصارى الى ان تحرّك اليها سنة اربع وخمسين وخمسماية...⁽⁸⁾».

ويستشف من رواية التيجاني، أنّ عبد المؤمن لم يتعجّل في تلبية طلب الحسن الزيري الذي ما فتى يسنصرحه، لاستعادة ملكه الضائع. وظلّ على هذا التماطل إلى أن نزلت عنده بمراكش، جماعة من أهل زويلة⁽⁹⁾، تستنصره ضدّ النورمان الذين بطشوا بهم، حينما حاول سكان هذه المدينة، اقتحام المهديّة عام 552هـ/1158-1157م. وفي هذه المرّة، كان ردّ عبد المؤمن سريعاً،

6- الكامل في التاريخ. نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقلية. ص- 295 296.

7- المختصر في أخبار البشر. الجزء الخامس - الدولة العلويّة في مصر والحروب الصليبيّة - إصدار دار البحار لصاحبها : اديب عارف الزين. عام 1380هـ/1960م. ص- 29 30.

8- رحلته. نقلاً عن المكتبة العربيّة الصقلية. ص- 400 401.

(*) تُعدّ زويلة، ربضاً لمدينة المهديّة. ونظراً لارتباطها جغرافياً بهذه الأخيرة و التنامها بها. أشار إليهما التيجاني «بالمهديتين». وحدّد ابن الأثير المسافة الفاصلة بينهما بنحو ميلين و قال غاية (غلوّة) سهم. فيما ذكر ياقوت الحموي. أنّها لا تتجاوز رمية سهم فقط أو طول ميدان. وقدّرها النوبري أيضاً بغلوّة سهم. و هي توازي رميته والتي تقدر بثلاثماية ذراع إلى أربعماية. رحلة التيجاني. نقلاً عن م-ع-ص. ص 400 : الكامل. نقلاً عن م-ع-ص. ص301، 305 : معجم البلدان. ج. 3. ص 180. ج. 5. ص 267 : نهاية الأرب. ج. 24. ص 172.

حسب روايات ابن الأثير والنويري وابن خلدون، حيث ورد هذا الخبر بوضوح في «كتاب الكامل»، فجاء بالشرح الآتي: «فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه دخلوا إليه فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الاسلام من يُقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا لأنصرتكم ولو بعد حين وأمر بأنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار...⁽⁹⁾». وتطابقت رواية النويري مع هذا العرض، فذكر مضمونها ما يلي: «وفعلوا بمدينة زويلة الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب. فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستجيرون به فأكرمهم. وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الاسلام من يُقصد غيره. فأطرق ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرتكم ولو بعد حين» وأمر بأنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار⁽¹⁰⁾. وأما في «كتاب العبر»، فإن الفكرة وردت باختصار، فكان مفادها: «ولما وقع باهل زويلة من الفرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن ملك المغرب يستصرخونه فاجاب صريخهم ووعدهم واقاموا في نزلة وكرمه⁽¹¹⁾».

على أن ثورة زويلة التي تُعدّ محاولة جريئة لإنهاء الحكم النورماندي في المهدية، وقعت استجابة لطلب أهل سفاقس وتنسيقاً معهم، لفتح هذه المدينة وذلك إثر استرجاع مدينتهم من قبضة النورمان، في شهر محرم عام 551هـ/ فبراير 1156م. وقد تناولت المصادر الإسلامية، هذه الهبة المحلية التي زعزعت فعلاً الكيان النورماندي في إفريقية. ومن هذه الروايات التي أشارت إلى هذه

9- نقلاً عن المكتبة العربية الصقلية، ص 303.

10- نهاية الأرب، ج 24، ص 171.

11- نقلاً عن المكتبة العربية الصقلية، ص 504.

الثورة، المتوجة بنكسة فادحة، أخصّ بالذكر ما أورده ابن الأثير مفصلاً، حيث يقول: «وارسل عمر بن ابي الحسن - قائد الحركة التي استردت مدينة سفاقس من النورمان - الى زويلة وهي مدينة وبين المهديّة نحو ميلان يُحرّضهم الى الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فاعانوا اهلها على من بالمهديّة من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهديّة... واما اهل زويلة فانه كثر جمعهم بالعرب واهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهديّة وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهديّة قليلة فسير اليهم صاحب صقليّة عشرين شينيا فيها الطعام والرجال والسلاح فدخلوا البلاد وارسلوا الى العرب فبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم واهل زويلة وانهزمت العرب وبقي اهل زويلة واهل سفاقس يُقاتلون الفرنج بظاهر البلاد واحاط بهم الفرنج فانهم اهل سفاقس وركبوا في البحر فنحوا وبقي من اهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهم اهل زويلة فراوا ابوابها مُغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتّى قُتل اكثرهم ولم ينج منهم الا القليل فتفرّقوا ومضى بعضهم الى عبد المومن فلما قتلوا هرب من بها من الحرم والصبيان والشيوخ في البحر ولم يُعرجوا على شيء من اموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقرّ الفرنج بالمهديّة الى ان اخذها منهم عبد المومن...»⁽¹²⁾.

وعن هذا الموضوع، جاء نص ابن خلدون أقلّ تفصيلاً وورد فيه: «وسار اهل سفاقس والعرب الى زويلة واجتمعوا مع اهلها على حصار المهديّة وامدّهم غلياً بالقبوات والاسلحة وصانعوا العرب بالمال على ان يخذلوا اصحابهم ثم خرجوا للقتال فانهمز العرب وركب اهل سفاقس البحر الى بلدهم ايضاً

واتبعهم الفرنج وعاجلوهم عن زويلة فقتلوهم ثم افتتحوا البلد وقتلوا مخلفهم بها واستباحوهم»⁽¹³⁾. وأما رواية ابن عذاري فقد أشارت باختصار شديد إلى هذه الفكرة حيث ذكر، حسبما ورد في المكتبة الصقلية، أن في شوال سنة 551هـ «كان القيام على النصارى بالهدية وحصارهم فيها. وفي سنة 552هـ استولت الروم على زويلة»⁽¹⁴⁾.

وهكذا لم يلبث عبد المؤمن، إثر قبوله إسعاف أهل زويلة، حتى أمر بوجوب إعداد العدة لذلك. ولعل هذه الهبة السريعة، يمكن تفسيرها بتجاوب طلب الوفد المستغيث، مع سبق إصراره على فتح مدينة تونس، والذي كان قد استعصى عليه عام 552هـ/1157م⁽¹⁵⁾، مما يجعله ينال غايتين في حملة واحدة. لكن، لم يخف عنه، أن تحقيق مثل هذا المشروع العسكري ليس سهلاً أو هيناً وخاصة لما يتعلق الأمر بالمهدية، قاعدة الحكم النورماندي بإفريقية. ومن ثم، ألقى بكل ثقله عليه، فأعد له ما استطاعه من قوة، شملت البرية منها والبحرية.

الواقع، أن المصادر الإسلامية لم تغفل عن هذه الاستعدادات، حيث كشفت عن حجمها الذي يرقى إلى مستوى التحدي الذي يواجه الجيش الإسلامي. وقد جسد ابن أبي دينار القيرواني وهو من علماء القرن 6هـ/12م، ضخامة هذا الجيش، فكتب: «وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين عبد المؤمن من مدينة مراكش وقصد إفريقية بأمم لا تُحصى»⁽¹⁶⁾. وفي شأن هذا الإعداد، أفادت رواية ابن عذاري بالنص الآتي: «تحرك أبو محمد عبد المؤمن من حضرة مراكش في أول شوال من هذه السنة المؤرخة - 553هـ - إلى رباط الفتح

13 - العبر. نقلاً عن م-ع-ص. ص 504.

14 - البيان المغرب. نقلاً عن م-ع-ص. ص 374.

15 - عن هذه الحملة الفاشلة ضد تونس أرجع إلي: المراكشي: كتاب المعجب. في م-ع-ص. ص 319-318.

16 - كتاب المؤنس في أخبار إفريقية و تونس. نقلاً عن م-ع-ص. ص 540.

المسمى بالمهدية... فأمر بالكتب إلى قبائل الموحدين بالنفر للجهاد والاستعداد في الزاد وأمر أهل البلاد البحرية بإنشاء الاساطيل والأجفان لحمل جميع... وأمنيته من ذلك وسالت العساكر تابعة... الموحدين وسائر... العساكر بالإنعام وأسبل عليهم ملاءات العطاء التام...»، وعن هذه الاستعدادات، قال ابن الأثير: «ثم أمر بعمل الروايا والقرب والحياض وما تحتاج اليه العساكر في السفر وكتب الى جميع نوّابه في الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يامرهم بحفظ جميع ما يحصل من الغلات وان يُترك في سنبلة ويحزّن في مواضعه وان يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما امرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطبنوا عليها فصارت كأنها تلال، فلمّا كان في صفر من هذه السنة (554هـ) سار عن مراكش وكان اكثر اسفاره في صفر فسار يطلب افريقية واجتمع من العساكر مائة الف مقاتل ومن الاتباع و السوق امتا لهم وبلغ من حفظه لعساكره أنّهم كانوا يمشون بين الزروع فلا يتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلّوا جميعهم مع امام واحد بتكبيره واحدة لا يتخلف منهم احد كائناً من كان». هذا عن الجيش البري، أمّا في البحر فورد عنه: «واقبل اسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندي»⁽¹⁷⁾. لا شك أنّ هذه الرواية، تبرز مدى التنظيم والانضباط الذين تميز بهما هذا الجيش وهو ما يكسبه الفعاليّة والهيبة في ميدان الوغى. وعبر عبد الواحد المراكشي عن هذه القوّة العسكريّة بقوله: «فلمّا كان في آخر سنة ثلث وخمسين وخمس مائة اخذ عبد المومن في الحركة الى افريقية فجمع جموعا عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب»⁽¹⁸⁾. وأشار ابن خلدون إلى هذا الاعداد وحجمه، فقال: «وتجهّز

17- الكامل، نقلًا عن م-ع-ص، ص 303-304 : وانظر أيضًا : البيان، ج.4، ص.61. جاءت رواية النوبري في هذا الموضوع، مطابقة تمامًا مع نص ابن الأثير بما يدلّ على أنّها مستمدة منه، نهاية الأرب، ج.24، ص.171. الشينيني والطريدة والشلندي، هي أنواع مختلفة من المراكب، تتباين في الأحجام والأدوار.
18- كتاب المعجب في تخلص أخبار المغرب، نقلًا عن م-ع-ص، ص.319.

للمسير وتقدّم الى ولايته واعماله بتحصيل الغلات وحفر الآبار ثمّ سار في صفر سنة اربع وخمسين في مائة الف مقاتل...»⁽¹⁹⁾. وقدم التيجاني أيضًا وصفه لهذه القوّة، فقال: «وقد كان عند وصوله الى بجاية عرض عسكره فكانت الخيل ازيد من مائة الف فارس وأما الرجال فما يحصون كثرة الخ.»⁽²⁰⁾.

على أنّ هذا الإعداد العسكري الملحوظ، يعكس وعي عبد المؤمن بصعوبة تحقيق مشروع فتح المهدية، لما تنعم به هذه الأخيرة من أسباب المناعة والحصانة. وينم أيضًا عن إدراكه الحصيف للأهمية الإستراتيجية التي تحظى بها هذه المدينة لدى العرش النورماندي. ولا شك أنّ هذا التصور، كان صائبًا وله ما يبرره، ويجسّده بشكل واضح، ما عرضته المصادر الإسلامية عن هذه المكانة الرفيعة والإستراتيجية التي تنعم بها مدينة المهدية. وقد عبّر عبد الواحد المراكشي، تعبيرًا وافيًا عن أهمية الموقع الجغرافي والإمكانات الدفاعية للمدينة، فقال: «وهي من معقل المغرب المنيعه لأنّ بنائها في غاية الاحكام والوثاقة بلغني أنّ عرض حائط سورها ممشا ستة افراس في صفّ واحد ولا طريق لها من البرّ الاّ على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقاتلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر احد ممن في البرّ على منعه...»⁽²¹⁾. وأورد مؤرخ مجهول، عاش في القرن 8هـ/14م، هذه الفكرة نفسها، حيث قال: «وما للمهدية قتال من البحر وأما قتالها من شملها من ناحية البرّ من مكان ضيق قد حصن بسور عرضه يمشي عليه فارسان...»⁽²²⁾، وعبّر ياقوت الحموي أيضًا، عن هذه القدرة الدفاعية للمهدية، فذكر ما يلي: «وهي على ساحل بحر الروم داخلة فيه ككف على زند، عليها سور عال محكم كأعظم

19- العبر نقلاً عن م-ع-ص. ص 505.

20- رحلته، نقلاً عن م-ع-ص. ص 401.

21- كتاب المعجب، نقلاً عن م-ع-ص. ص 319.

22- كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، نقلاً عن ذيل م-ع-ص. ص 63.

ما يكون يمشي عليه فرسان»⁽²³⁾. ولم يُخف عبد المؤمن اندهاشه لهذا الواقع الدفاعي المحكم حينما تفقّد مع الحسن الزيري المخلوع، الواجهة البحرية للمدينة عقب وصوله إليها. وأورد ابن الأثير، هذا الموقف فقال: «وركب عبد المؤمن في شين ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها واطاف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها... وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلّة من يوثق به وعدم القوت و حكم القدر فقال صدقت...»⁽²⁴⁾. وقد أشار أيضا التيجاني إلى هذا الحوار، فتضمّن فحواه ما يلي: «وقال عبد المؤمن للحسن ما الذي اخرج هذا المعقل من يدك فقال له اخرجه انقضاء الامر و عدم الثقة باحد»⁽²⁵⁾. ونفس الفكرة، أوردها أبو عبد الله الزركشي، عاش في القرن 15م، إذ جاء فيها: «ومعه الحسن بن علي صاحبها فلمّا عاين ابراجها الشاخنة من جهة البرّ في سفينة و طاف بها من جهة البحر فقال للحسن كيف نزلت من هذا المعقل العظيم فقال لقلّة من يوثق به من الرجال وعدم القدرة و حكم القدر...»⁽²⁶⁾. وزاد من مناعتها، الحماية العسكرية النورمانديّة المرابطة بها. وفي ذلك، كتب صاحب الحلل الموشيّة: «وكان داخلها من الفرنج ثلاثة آلاف...»⁽²⁷⁾. وإلى جانب أهميّتها الطبيعيّة والعسكريّة، تستمدّ المهديّة مكانتها السياسيّة المرموقة، ضمن باقي المستعمرات النورمانديّة في إفريقيّة، من كونها قاعدة تأوي ممثلين للتاج النورماندي، من كبار فرسان النورمان وأشرفهم. وعن هذه الأفضلية والميزة السياسيّة للمهديّة، قال ابن

23- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج.5، ص.266.

24- الكامل، نقلاً عن م-ع-ص، ص-306 305: عن هذا الحوار، ورد نفسه عند النوبري: المصدر السابق، ج.24، ص.172.

25- رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص-401 402.

26- من تاريخ أوّليّة بعض الدولة الموحديّة و نبوغ الدولة الحفصيّة، نقلاً عن م-ع-ص، ص.523.

27- الحلل الموشيّة، نقلاً عن ذيل م-ع-ص، ص.63.

الأثير: «وكان حينئذ بالمهدية اولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان»⁽²⁸⁾. وكتب المراكشي: «وفيها الروم - النورمان - اصحاب الدوقة»⁽²⁹⁾. وذكر ابن خلدون: «وبها اولاد الملوك والزعماء من الفرنج...»⁽³⁰⁾. ويقر التيجاني أيضاً، هذا الواقع السياسي بالمهدية، فيقول: «وبها حينئذ ولادة ملوك الفرنج وابطالهم»⁽³¹⁾. وتبدو هذه الرواية، مستمدة أيضاً من نص ابن الأثير، لتشابهها وتطابقها معه.

وحينما اكتملت التحضيرات العسكرية، تحرّك عبد المؤمن من مدينة مراكش بالمغرب الأقصى نحو إفريقية وكان ذلك «في أوّل شهر شوال من عام 553هـ / 26 أكتوبر 1158م» أو بعده بوقت قليل. إنّ هذا التاريخ أورده ابن صاحب الصلاة⁽³²⁾، لكن الروايات الإسلامية، اختلفت في ضبط موعد انطلاق هذه الحملة، «في العشر الأوّل من شهر شوال عام ثلاثة وخمسين» حسب رواية ابن أبي زرع الفاسي⁽³³⁾، وذكر ابن عذارى، أنه «تحرّك من موضع عسكره بمدينة سلا فكان خروجه منها في العاشر من شهر صفر من عام أربعة وخمسين وخمسمائة». وحصره ابن الأثير، «في شهر صفر من هذه السنة» أي 22/554هـ فبراير - 22 مارس 1159م⁽³⁴⁾. أشار ابن خلدون والنويري إلى نفس التاريخ⁽³⁵⁾. وأورد المراكشي «في آخر سنة ثلث وخمسين وخمس مائة»⁽³⁶⁾. ووضع ابن أبي دينار هذا الحدث

28- الكامل. نقلاً عن م-ع-ص. ص 305. الفكرة مطابقة عند النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 171.

29- المصدر السابق. نقلاً عن م-ع-ص. ص 319.

30- المصدر السابق. نقلاً عن م-ع-ص. ص 505.

31- المصدر السابق. نقلاً عن م-ع-ص. ص 401.

32- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بان جعلهم الله إمامة وجعلهم الوارثين. نقلاً عن م-ع-ص. ص 197.

33- الفرطاس. في م-ع-ص. ص 404.

34- البيان المغرب. ج 4، ص 62: الكامل. في م-ع-ص. ص 304.

35- العبر في م-ع-ص. ص 505: نهاية الأرب. ج 24، ص 171.

36- المعجب. في م-ع-ص. ص 319.

في سنة 553هـ⁽³⁷⁾، فيما أشار التيجاني إلى «سنة أربع وخمسين وخمسمائة»⁽³⁸⁾ وأما أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، فإنه التزم الاختصار الشديد، فقال: «ثم خرج الخليفة - عبد المؤمن - بعسكره إلى المهديّة وبرز على تونس بروزاً عظيماً...»⁽³⁹⁾. ونفس العرض نجده عند صاحب الحلل الموشية حيث قال: «ورحل (يعني عبد المؤمن) منها (يعني تونس) يريد المهديّة...»⁽⁴⁰⁾.

بعد أن فتح مدينة تونس⁽⁴¹⁾، زحف على المهديّة براً وبحراً، وبلغ مشارفها «ضحوّة يوم الأربعاء الثاني عشر لرجب» عام 554هـ/30 جويلية عام 1159م. وتتفق رواية ابن الأثير مع هذا التاريخ الذي أورده التيجاني نقلاً عن ابن شدّاد، وجاء فيها: «وسار عبد المؤمن منها - أي تونس - إلى المهديّة والاسطول يحاذيه في البحر فوصل إليها ثاني عشر رجب» ويؤكد هذا التاريخ، كلّ من النويري والزركشي، ما عدا ابن خلدون، الذي يُفيد نصّه بأنّ عبد المؤمن «سار عنها - أي تونس - إلى المهديّة واسطوله يُحاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب...»⁽⁴²⁾.

37- المؤنس. في م-ع-ص. ص 540.

38- رحلته. في م-ع-ص. ص 401.

39- كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وحقيق عبد الحميد حاجيات، ش.و.ن.ط. الجزائر ط 1394هـ/1974م، ص 146.

40- في ذيل المكتبة العربيّة الصقليّة، ص 62.

41- عن هذا الفتح أرجع إلى: المكتبة العربيّة الصقليّة نقلاً عن الكامل، ص 304-305 : المؤنس، ص 540 : البيان المغرب، ص 374 : المعجب، ص 319 : العبر، ص 505 : رحلة التيجاني، ص 401. و انظر أيضاً : البيهقي : المصدر السابق، ص 146.

42- في المكتبة الصقليّة، أنظر : رحلة التيجاني، ص 401 : الكامل، ص 305 : تاريخ أوليّة بعض الدول الموحديّة.

ص 523 : العبر، ص 505 : النويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 171.

في الأصل، جاء عند ابن الأثير «ثامن عشر رجب» إنها الرواية الوحيدة التي تُقر ذلك. وحتى النويري الذي عرف عنه، نهله من ابن الأثير، ذكر ثاني عشر، ويعزو المؤرخ الهادي إدريس روجر هذا الخلل، إلى خطأ في القراءة من قبل الراوي. ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1403هـ/1983م، الجزء السابع، ص 63. و انظر أيضاً :

Hady(Roger Idris), La Berbérie Orientale sous les Zirides, Librairie D'Amérique et d'orient, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1962, Tome Premier, p. 390, Note 433.

وذكر ابن الأثير أنَّ عبد المؤمن، أثناء هذا التحرك، "قدّم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الذي كان صاحب المهديّة وافريقية". "وفي مقدّمته الحسن ابن عليّ الذي كان صاحب المهديّة."، كما ورد عن ابن خلدون. وأمّا المراكشي فإنّه أشار إلى يحيى، حيث قال: "وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلّحّين بن زيري بن مناد الصنهاجي ملوك القيروان".⁽⁴³⁾. ولعلّ منح عبد المؤمن هذه المكانة المتميّزة للحسن، أنما يريد بها إيهام هذا الأخير، بنّيته في إعادة تمكين آل زيري من عرشهم بالمهديّة بعد فتحها⁽⁴⁴⁾.

كان على عبد المؤمن أولاً، وهو على رأس جيش عتيد، أن يتعامل مع زويلة التي تتبع المهديّة بحكم اتصالها بها جغرافياً وإدارياً. لكن لحسن حظه، أنّه لم يلق أية مقاومة عسكريّة من قبل المسيحيّين والنورمان المرابطين في أرجائها، حيث انضموا إلى المهديّة على عجل، بعد أن اشتدّ بهم الذعر والهلح عند بروز طلائع جيش الموحدّين. وقد شكل هذا الانكفاء النورماندي، بداية انتصار عبد المؤمن على المهديّة، كما انعكس إيجاباً على أوضاع زويلة التي تحوّلت إلى فضاء إسلامي حيوي وإلى موطن قدم، يسمح بالتضييق أكثر على المهديّة المحصّنة. ولا شك أنّ مثل هذه المحطّة التاريخيّة، قد نالت اهتمام المؤرّخين المسلمين إذ انكبوا على تدوين أحداثها كاشفين عن بعض تفاصيلها البارزة. وأفاد عنها ابن الأثير في روايته فقال: «وقد اخلوا زويلة - النورمان والمسيحيون - وبينها وبين زويلة غلوة سهم فدخل عبد المؤمن زويلة وامتألت بالعساكر والسوقه فصارت مدينة

43- في المكتبة الصقلية : الكامل، ص 304 : رواية النويري مطابقة لنص ابن الأثير. نهاية الأرب، ج 24، ص 171؛

العبر، ص 505 : المعجب، ص 319.

44- أنظر : Hady(R. I.), op.cit., p. 387.

معمورة في ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها - خارجها - وانضاف اليهم من صنهاجة والعرب واهل البلاد ما يخرج عن الحصاء»⁽⁴⁵⁾. وتتفق روايتا ابن خلدون والتيجاني مع هذا النص، حيث جاء في العبر⁽⁴⁶⁾ : «واخلوا زويلة وهي على غلوة من المهديّة فعمرها عبد المومن لوقته وامتلا فضاء المهديّة بالعساكر»، كما ورد عن رحلة التيجاني⁽⁴⁷⁾ : « وقد خلوا زويلة فترها عبد المومن فهي حملت من خواصّه ومن اهل الاسواق فعادت مدينة معمورة من يومها». وفصل الزركشي، نسبياً، الوضع الداخلي لزويلة، وكان قوله في ذلك : «وكان النصارى يدخلون مدينة زويلة فامر عبد المومن بدخول اسواق المحلّة اليها وان يدخل من اهل المحلّة من يعمرها فصارت من حينها مدينة عامرة فكان عبد المومن يقعد في فسطاطه فماره بالمحلّة ويبيت بالليل بدار داخل زويلة»⁽⁴⁸⁾.

إنّ عبارة «أهل البلاد» الواردة عن ابن الأثير، يراد بها أهل زويلة أو أهل المهديّة الذين ربّما قد غادروا المدينة عند اقتراب جيش عبد المومن منها. والقيادة النورمانديّة في المهديّة والتي توقّعت الحصار القادم عليها، لم تمنع خروج المسلمين من المدينة، بل شجّعتهم على تركها، ولعلّها أجبرتهم على ذلك حتّى لا تتحمّل عبء إعالتهم أثناء الحصار⁽⁴⁹⁾.

وهكذا تحوّل واقع زويلة إثر سيطرة عبد المؤمن عليها وغدت مركزاً حسّاساً يعجّ بالنشاط الاقتصادي والاجتماعي، ممّا يوحي أنّ دخول الموحّدين إلى زويلة، يُعدّ نعمة على السوق أو أهل السوق، وهم التّجار الذين مارسوا نشاطاً

45- الكامل. في م-ع-ص. ص 305. إنّ نص النويري مطابق بحذافره لرواية الكامل. نهاية الأرب. ج 24، ص 172.

46- في م-ع-ص. ص 505.

47- في م-ع-ص. ص 401.

48- المصدر نفسه. في م-ع-ص. ص 523.

49- أنظر : Hady(R. I.), op.cit, p. 390.

تجارياً مبرجاً في خضمّ هذا الزخم البشري الصاحب، كما شكّل فرصة لتعزيز أسس الجيش الإسلامي بانضمام عناصر من القبائل المحليّة إليه.

ولا شكّ أنّ احتواء عبد المؤمن لزويلة، يُعدّ خطوة إيجابيّة في سبيل استرجاع مدينة المهدية من حوزة النورمان، وخاصّة أنّه أدّى إلى تعزيز صفوف جيشه بعد أن «انضاف إليهم من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الحصاء» كما سبق ذكره، حسب رواية ابن الأثير⁽⁵⁰⁾. ولم يلبث على أثر هذا الفوز، أن أمر عبد المؤمن بإلقاء الحصار على المهدية، برّاً وبحراً، هذا بعد إدراكه جيّداً أنّ فتح هذه المدينة سيكون صعباً وشاقاً. وقد تعرّضت نصوص المصادر الإسلامية، إلى هذا الاجراء العسكري فورد عن ابن عذاري الشهادة الآتية: «حتّى وصل مدينة المهدية مقر النصارى من أهل صقلية و نازلها وتلاحق الاسطول اليه فيها بالآلات والمجانيق والعدد وغيرها وحضر الفعلة لها». وفي ذلك قال ابن ابي زرع الفاسي: «ونزلها برّاً وبحراً وشرع في قتالها... فترل على من بها من الروم برّاً وبحراً ونصب عليها المجانيق والرعدات^(*) في البر والبحر». وجاء عن المراكشي: «فترل عبد المؤمن عليها محاصرها اشدّ الحصار»، واختصر ابن أبي دينار هذا الحدث بقوله: «وحاصر النصارى بالمهدية»، وأمّا رواية ابن خلدون فإنّها ذكرت ما يلي: «وامتلا فضاء المهدية بالعساكر وحاصرها اياماً... واحاط الاسطول بها من البحر»⁽⁵¹⁾.

على أنّ عبد المؤمن لم يكّد يفرغ من عمليّة تطويق المدينة، حتّى بدأ

50- الكامل. في المكتبة الصقلية. ص 305.

(*) هي العرّادات - مفردتها عزّادة - وليس الرعدات. إنها آلات حربيّة. حجمها أصغر من المنجنيق. تستعمل لقذف الحصى. و صاحب القرطاس. هو الراوي الوحيد الذي أورد هذه الكلمة. وقد تناول أماري هذا المصطلح بالشرح. محاولاً إبراز العلاقة بين المصطلحين. و بما أنهما يحتويان على نفس الحروف. فإنّه يعزو هذا الفرق ربما إلى خطأ النساخين فتغيّر ترتيبها. تاريخ مسلمي صقلية. ج 3. ص 466. هامش 2. و انظر أيضاً:

Hady(R.I.), op.cit., I, p.390, note p. 347.

51- البيان. ج 40. ص 62: القرطاس. في م-ع-ص. ص 403-404: المعجب. في م-ع-ص. ص 319: المؤنس. فيم-ع-ص. ص 374: العبر في م-ع-ص. ص 505.

جنوده في الهجوم عليها دون هوادة. غير أنَّ الحامية النورمانديّة، أفشلت محاولاتهم لاقتحامها وساعدها على ذلك موقع المدينة المتميّز وحصانة أسوارها، فضلاً عن ضيق الممرّ الذي يربط المدينة بالأرض، ممّا يُعيق قدرة الجيش الإسلامي على الحركة والمناورة. وقد تناولت المصادر الإسلاميّة هذا الحراك العسكري، مبرزة صعوبة التحدي التي كانت على جيش عبد المؤمن مواجهتها. وأوضح ابن الأثير هذه الحقيقة، فقال: "واقبلوا يقاتلون المهدية مع الأيام فلا يوتر فيها لخصانتها وقوة سورها وضيق موقع القتال عليها لأنّ البحر دائر باكثرها وكأنّها كفّ في البحر وزندها متّصل بالبر" (52). ويؤكد صاحب «الخلل الموشية» (53) هذه الفكرة، فذكر نصّه: «وما للمهدية قتال من البحر وأنما قتالها من شمالها من ناحية البرّ من مكان ضيق قد حصّن بسور عرضه يمشي عليه فارسان». ويبيّن ابن خلدون هذا العائق الطبيعي الذي يشقّ على جيش الموحدين ويقف أمامه حائلاً لتحقيق أيّ نصر عاجل، وورد ذلك في روايته فذكرت: «وضاق موضع القتال في البرّ لاستدارة البحر لأنّها صورة يد في البحر وذراعها في البرّ» (54). ويكشف التيجاني (55) هو الآخر، عن هذه المواجهة وما يمثّله موقع المدينة من معضلة في وجه قوات عبد المؤمن، فجاء نصّه بالمضمون التالي: "واقبل الناس يقاتلون المهدية مع الامام فلا يوتر ذلك فيها لخصانتها وضيق ما اخذ القتال منها لأنّ البحر دائر باكثرها".

الواقع أنّ الحامية النورمانديّة، وفي ظلّ الحصار الشديد المفروض على المدينة، لم تقف موقف الدفاع فقط وإنّما سعت بين الفينة والأخرى، إلى شنّ

52- الكامل. في م-ع-ص. ص 305. لا تختلف عن رواية النويري نصّاً وتركيباً. نهاية الأرب. ج 24. ص 172.

53- مجهول. في ذيل م-ع-ص. ص 63.

54- العبر. في م-ع-ص. ص 505.

55- رحلته. في م-ع-ص. ص 401.

غارات خاطفة ضدّ الجيش الإسلامي خارج المدينة. ويبدو أنّ هذه الضربات كانت مُوجعة، ممّا اضطرّ عبد المؤمن إلى بناء سور غربي المدينة، يحفظ جيشه من شرّ هذه الوثبات. وعن هذا الموضوع، قالت رواية ابن الأثير: "فكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى اطراف العسكر فتتال منه و تعود سريعاً فامر عبد المؤمن ان يبني سور من غربيّ المدينة يمنعهم من الخروج". ونفس النص، أورده النويري، وهو بالتأكيد مُستمدّ من الكامل⁽⁵⁶⁾. وعن التيجاني، جاء ما يلي: «وكان الفرنج يخرجون منها فيتهبون اطراف العسكر فامر عبد المؤمن ببناء سور بين عسكره والمدينة يمنعهم من الخروج»⁽⁵⁷⁾.

هذا، وبينما كان الحصار جارياً و الحرب سجّالاً بين النورمان وجيش عبد المؤمن، راح هذا الأخير، بمعية الحسن الزيري، على ظهر «شيني» (مركب) يتفقد واجهة المدينة من جهة البحر. لكن استبدّت به الدهشة، لما حظيت به المدينة من حصانة و قدرة على المقاومة، وحينئذ، أدرك أنّ النيل من المدينة، لا يكمن في القتال وإنّما في عامل الزمن وذلك عن طريق تمديد فترة الحصار أطول وقت ممكن، مع توفير مُستلزماتها اللائقة بها. ولا شك أنّ المصادر الإسلامية، قد وقفت عند هذه المحطة الحاسمة، والتي تعدّ خطة حربيّة ناجحة ومضمونة النتيجة في كلّ الأحوال. إنّ ابن الأثير، تطرّق إلى هذه الإستراتيجية فقال: «وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها واطاف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنّها لا تفتح بقتال برّاً ولا بحراً وليس لها الا المطاولة... وعاد من البحر وامر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتّى

56- الكامل، في م-ع-ص، ص 305 : نهاية الأرب، ج 24، ص 172.

57- رحلته، في م-ع-ص، ص 401.

صار في العسكر كالجبلين من الحنطة و الشعير فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال ها هنا فيقال لهم هي حنطة وشعير فيعجبون من ذلك و تمدى الحصار“. وفي هذا الشأن، ذكر ابن خلدون : ”وركب عبد المومن البحر في الشواني ومعه الحسن بن عليّ فرأى حصانتها من البحر واخذ في المطاولة وجمع الاقوات حتّى كانت في ساحة معسكر كالتلال“. ونفس الرواية تقريباً، أخبر بها التيجاني، حيث جاء فيها : ”وركب عبد المومن في قطعة من قطعه ومعهم الحسن ابن عليّ الذي خرج منها وطاف بها في البحر فهاله امرها وعلم أنّها لا تُفتح بقتال وليس لها الا مطاولة الحصار وتوقع الاقدار“⁵⁸⁽¹⁾.

وقد اهتمّت المصادر الإسلامية، بتغطية التطورات التي سادت ظروف حصار المهديّة، حيث تطرّقت بشيء من التفصيل والوضوح، إلى الأحداث المتعلقة بالمواجهة النورمانديّة الإسلاميّة من أجل إقرار مصير هذه المدينة نهائياً. الواقع أنّ هذه الصفحة، تجسّد صمود النورمان وإرادتهم الملحوظة في الاستئصال، من خلال تكريس امتداد زمن الحصار لفترة طويلة. وتبيّن أيضاً، حرص الملك النورماندي غليوم الأوّل، على إرسال الإمدادات العسكريّة، لمحاولة فكّ هذا الحصار، إلّا أنّ عبد المؤمن كان لها بالمرصاد حيث أفلح في إحباط هذه المبادرة وحرمان المهديّة من هذه المساعدة النفيسة والضروريّة. وعن سرّ استماتة النورمان وصبرهم وصمودهم للحصار، فإنّ المراكشي عزاه إلى عاملين أساسيين، هما: الموقع الجغرافي للمهديّة وكذا النجدة التي كانت تفد إلى الحامية النورمانديّة بين الفينة والأخرى. وقد عبّر عن هذه الفكرة، بقوله : ”فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار لأنّ النجدة

58-(1) ارجع إلى المكتبة الصقلية : الكامل. ص 305-306 : العبر. ص 505 : رحلة التيجاني. ص 401. وانظر أيضاً نص النوبري. الذي ينطبق معظمه مع رواية ابن الأثير. نهاية الأرب. ج 24. ص 172.

كانت تاتيهم من صقلية في كل وقت⁵⁹⁽²⁾. وتناول ابن الأثير، رد فعل عبد المؤمن العسكري، تجاه أكبر محاولة للملك غليوم الأول لإنقاذ المهدية من ضيق الحصار، فجاءت روايته بالحقائق التالية: «ولما كان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة (554هـ/08 سبتمبر 1159م) جاء اسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شني غير الطرائد وكان قدومه من جزيرة يابسة^(*) من بلد الاندلس وقد سبا اهلها واسرهم وحملهم معه وارسل اليهم ملك صقلية يامرهم بالمجيء الى المهدية فقدموا في التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما راوا من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويكي وي يدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر فانهزمت شوانى الفرنج واعادوا القلوع (الشراع) وتبعهم المسلمون فاخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم قلوع لآخذوا اكثرهم وكان امراً عجيباً وفتحاً قريباً وعاد اسطول المسلمين مظفراً منصوراً وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال^(*). رواية مماثلة، أوردها صاحب الحلل المشيئة، مع الاختلاف في تقدير حجم الأسطول، حيث قالت: ”ووصل اليهم مايتا جفن من جزيرة صقلية بالاقوات و العدد فخرج اليهم القائد ابو عبد الله بن ميمون باسطول الاندلس والمغرب اقام على باب دار الصنعة ولا دخول اليها الا من بابه فاخذوا الكثير منهم“. ويتفق مضمون روايتي ابن خلدون والنيجاني، مع نص ابن الأثير، سواء في عرضه أو تفاصيله مما يوحي إلى أنه مصدر لهما في هذا

59- العجب. في م-ع-ص. ص 319-320.

عن شرحه للموقع. تمت الإشارة إليه أنفاً. عند ذكر الأهمية الإستراتيجية للمدينة.

ذكر المراكشي النورمان. باسم الروم وكذا صاحب القرطاس: في م-ع-ص. ص 403. و البيدق: المصدر السابق. ص 146.

(*) جزيرة IVIZA.

الموضوع. وفي هذا الصدد، ورد عن ابن خلدون: ”ولما كان آخر شعبان - 22 من شعبان عند ابن الأثير والنويري - وصل اسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها وبعث اليه صاحب صقلية بقصد المهديّة فلما اشرفوا على المرسى قذفت اليهم اساطيل عبد المومن ووقف عسكره علي جانب البحر وعبد المومن ساجد يعفر وجهه بالتراب ويجأر بالدعاء فانهرم اسطول الفرنج واقلعوا الى بلادهم وعاد اسطول المسلمين ظافراً.“ وجاء خبر هذا الحدث عن التيجاني، وبشيء من التفصيل، بما يلي: ”وصل من طاغية صقلية اسطول فيه مائة وخمسون مركبا غير الطرائد فحضر مقدّم اسطول عبد المومن بين يديه وقال له هذا الاسطول قد اقبل وهو لا يصل الا متفرقا بحكم النوء فتأذن لنا في الخروج اليه فسكت عبد المومن فاغتنموا سكوته وبادروا الى القطع فملوها بما تحتاج اليه من العدد وخرجوا واصطفّت عساكر المسلمين على الساحل قال الحاكي كنت حاضرا وعبد المومن يبكي ويسجد في الارض ويقول اللهم لا تضع دعائم الإسلام ولما قرب الاسطول من دار الصناعة خرجت اليه من المهديّة قطعة لتلقاه فبادر ابن ميمون الى اخذها وكان بعض اسطول الفرنج قد حطّ قلعه للدخول فاخرجه فاعجله اسطول المسلمين على الدخول واستولى على ثمانى قطع منه فاجتمع بقيّة الاسطول وولّوا منهزمين فسجد عبد المومن شكرا لله تعالى وفرّق في غزاة الاسطول اثنا عشر الف دينار مومنيّة“. وأما النويري⁽⁶⁰⁾، فإنه

60- في المكتبة العربيّة الصقلية، الكامل، ص307: الحلل، ذيل، ص63: العبر، ص506: رحلة التيجاني، ص402. وانظر أيضًا: النويري: نهاية الأرب، ج24، ص173.

أشار التيجاني في حديثه إلى «النوء». و يقصد بذلك، هبوب الرياح الذي سيحول دون التنام و تماسك مراكب الأسطول أثناء تقدمها إلى المدينة.

تعرّض قائد الأسطول النورماندي في بالرمو، إلى انتقاد قاس، بسبب عدم استماتته في قتال المسلمين و انسحابه السريع من ميدان القتال دون مبرّر معقول. و اعتبر هذا الموقف، تخاذلا و خيانة في حقّ مصالح العرش النورماندي. والمؤرّخ أماري نفسه، عاب أصحاب القرار في بالرمو، على تأخّره في مؤازرة المهديّة، بينما كان الأسطول النورماندي يعبث في سواحل الأندلس. عن هذا الجدال، أرجع إلى: أماري: تاريخ مسلمي صقلية، ج3.

وقف هو الآخر، عند هذه المحاولة النورماندية لإنقاذ المهدية، فذكرت روايته : «ولما كان في يوم الإثنين لثمان بقين من شعبان سنة أربع وخمسين، جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينياً غير الطرائد، فقاتلهم أسطول عبد المؤمن فانهزموا. وتبعهم المسلمون واخذوا منهم سبعة شوان». و هكذا خابت مساعي قائد الأسطول النورماندي المسمى بطرس الخصي^(*) L'Eunuque Pierre الرامية إلى تعزيز قدرات الحامية النورماندية، من خلال إيصال الإمدادات لها. ولو قدر لهذه المساعدات، أن دخلت المدينة، لتدعمت إمكاناتها وكذا قدراتها على المقاومة، وسيُضفي ذلك حتماً إلى تقوية عزائم المقاومين ومن ثم إلى تمديد فترة الحصار أكثر. وأما عن النجدة التي ذكرها صاحب الحلل الموشية⁽⁶¹⁾، والوافدة من صقلية إلى المهدية من حين إلى آخر، فإن السؤال يبقى مطروحاً، حول كيفية تسلسلها إلى المدينة في ظل الحصار المضروب عليها براً وبحراً، تضمن استمراره، قوة عسكرية ضاربة، نجحت في إبطال محاولة أسطول بكامله، بعدته وعتاده، لإنقاذ المهدية.

ص-467 468. و انظر أيضاً :

Chalandon, op.cit., T. II, p. 240 ; Hady(I.R.), op.cit., T. I, p. 392.

(*) يُعرف أيضاً باسم الجاييتو بيتر Gaie Pierre. ذكره ابن خلدون باسم أحمد الصقلي. و يعتقد أماري. أنّ الاسمين يمثلان شخصاً واحداً. و قد قدّم ابن خلدون تعريفاً واضحاً بهذا القائد. فجاء فيه : "أصله من صد غيان الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش (من البربر) أسره النصارى من سواحلها (لعل أثر احتلال النورمان للجزيرة. عام 530هـ/ 1135م) و ربي عندهم و استخلصه صاحب صقلية (الملك روجر الثاني) و استكفاه...". نال بيتر منزلة عالية في بلاط النورمان ببلرمو. حيث تآلق جمه حتى غدا أحد الأفراد البارزين و النافذين في محيط العرش النورماندي وخاصة في عهد وصاية الملكة مارغريث Marguerite. أرملة الملك غليوم الأول. لكن الصراع حول النفوذ و ما أثار عنه من تنامي المؤامرات و التهديد تجاه شخصه. جعله يقرر مغادرة صقلية. لينضوي تحت لواء المؤيدين بالمغرب الإسلامي. ويواصل ابن خلدون الكشف عن حياة هذا القائد فيقول : "ثم ملك - أي روجر الثاني - و ولى ابنه - فأسخطه ببعض النزاعات و خشي على نفسه فلاحق بتونس و نزل على السيد بها من بني عبد المومن فاجاز الى مراكش فلقاه الخليفة يوسف بن عبد المومن بالمبرة و الكرامة و اجزل له الصلة و قلده امر أساطيله فجلى في جهاد ام النصرانية...". العبر. في م-ع-ص. ص. 462.

و عن تفاصيل تاريخ هذا الشخص ارجع إلى : أماري : تاريخ مسلمي صقلية، ج.3، ص-480 483. و انظر أيضاً : Chalandon, op.cit., T. II, pp. 309- 317.

61- في المكتبة الصقلية، ص-319 320.

ومهما يكن من أمر هذه الهزيمة، فإنّها شكّلت ضربة موجعة للحامية النورمانديّة داخل المهديّة، إلّا أنّ جنودها واصلوا صمودهم في وجه الحصار الذي لم يخفف ثقله أو ضغطه على المدينة قط، ممّا أدّى في الواقع، إلى تدهور أوضاع سكّانها المعيشيّة.

وقد تناول ابن أبي دينار، هذا الضغط العسكري الذي مارسه جيش عبد المؤمن دون هودة على المهديّة، وعن ذلك قال: «وضايق عليها برّاً وبحراً ونصب عليها المجانيق وجعل قتالها نوباً ليلاً ونهاراً حتّى فتحها وقتل خلقاً كثيراً من النصاري الذين بها». ويبيّن ابن عذاري أيضاً، هذا المشهد العسكري بجلاء، فكشف نصّه عما يلي: «فأمر لها -أي عبد المؤمن- بقتال الكفرة ورماهم بالحجارة نهاراً وليلاً وأرسل عليهم من سحائب السهام وابلا وأسأل عليهم المنايا من كل جانب سيلاً ودام حصاره لهذه المدينة المنيعّة في المعازل الرفيعة»⁽⁶²⁾، وأوضح أنّ هذه الصورة، رواية ماثلة، لابن أبي زرع الفاسي⁽⁶³⁾ حيث جاء فيها: «ولم يُرفع عنها القتال ليلاً ولا نهاراً وجعل قتالها نوباً على قبائل الموحّدين حتّى فتحها وقتل بها خلقاً كثيراً من النصاري». وعن المعانة التي قاساها أهل المدينة، فقد عبّر عنها ابن الأثير⁽⁶⁴⁾ بقوله: «وكان قوتهم قد فني حتّى أكلوا الخيل». وأقرّ التيجاني⁽⁶⁵⁾ نفس الفكرة، فذكر: «وكان قوتهم قد فني». و وصف ابن خلدون⁽⁶⁶⁾ هذا المشهد القاسي، فقال إنّ الحصار قد جهدهم أي أهل المهديّة. وأشار إليه النويري أيضاً، بقوله: «حتّى فنيّت اقواتهم وأكلوا خيلهم»⁽⁶⁷⁾.

62- المؤنس، في م-ع-ص، ص 540: البيان، ج. 4، ص 62.

63- القرطاس، في م-ع-ص، ص 404.

64- الكامل، في م-ع-ص، ص 307.

65- رحلته، في م-ع-ص، ص 402.

66- العبر، في م-ع-ص، ص 506.

67- نهاية الأرب، ج. 24، ص 173.

وكان من الطبيعي أن يُعطى هذا الحصار الطويل والشديد الثمرة المرجوة منه، وهي رفع الحامية النورماندية الراية البيضاء والاستسلام لعبد المؤمن. وقد تميّز هذا الحصار بطول مدّته، حدّده كل من ابن الأثير والزرّكشي و التيجاني، «بستّة أشهر». وذكر ابن أبي دينار وابن عذارى «سبعة أشهر»، وأشار صاحب الحلل الموشيّة، إلى «ستة أشهر وتسعة أيّام»، فيما أورد المراكشي سبعة أشهر إلّا أيّام⁽⁶⁸⁾. ويُعدّ هذا الاستسلام، المحطّة الأخيرة في الصراع النورماندي الإسلامي حول مدينة المهدية، عُرضت خطوتها في متون المصادر الإسلاميّة بشكل واضح وواف. وورد في مقدّمة هذا العرض، ذكر الدافع إلى اتخاذ موقف الاستسلام. وحصره المؤرّخون، إلى جانب قساوة الحصار، في عامل اليأس الذي انتاب الحامية النورماندية، من وصول أيّ إمداد خارجي يفكّ الحصار عنهم. وفي ذلك، قال ابن الأثير: «ويُس أهل المهدية حينئذ من النجدة»، وهو ما يؤكّده النويري حرفيًا. وكتب ابن خلدون: «واستياس الفرنج بالمهدية من الانجاذ»، ويشار كههم التيجاني هذه الفكرة فنصّت روايته: «ويُس أهل المهدية من النصرة»⁽⁶⁹⁾.

ثمّ تناولت ذات المصادر، مبادرة النورمان لفتح باب المفاوضات مع عبد المؤمن، تمهيداً لتسليم المدينة له بسلاسة، هذا بعد اقتناعهم الكامل بعدم جدوى الاستمرار في مقاومتهم للحصار. وقد وقف ابن الأثير، عند هذه الخطوة المعبرة عن انهيار آمال النورمان، فقال: «وصبروا على الحصار... الى آخر ذي الحجّة من السنة - 554هـ/بداية جانفي عام 1160م - فترل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسالوا الامان لمن فيها من الفرنج على انفسهم واموالهم

68- انظر المكتبة العربيّة الصقليّة: الكامل، ص307: تاريخ أوّليّة، ص523: رحلة التيجاني، ص401: المؤنس، ص540: الحلل الموشيّة، ذيل، ص63: المعجب، ص320. وانظر أيضًا: البيان، ج. 4، ص62.

69- في المكتبة الصقليّة: الكامل، نفسه: العبر نفسه: رحلة التيجاني، ص402. وانظر أيضًا: نهاية الأرب، ج. 24، ص173.

ليخرجوا منها و يعودوا الى بلادهم». ولم يجد النويري، كعادته، عمّا أورده ابن الأثير في هذا الموضوع، فجاءت فكرته مشابهة له مضموناً وتركيباً. ويؤكد ابن عذارى، هذه الخطوة النورماندية، فذكر نصّه : «حتّى يسّر الله فتحها على صلح من النصارى وطلبوا الخروج بأمان إلى بلادهم.» وعبّر صاحب الحل الموشّية أيضاً، عن هذه المحاولة، فضمنت روايته النص الآتي: «ولمّا طال الحصار خرج اليه ثمانية من اعيان الروم... وغرّضنا الخروج عن البلاد باموالنا واهلنا وترك لك البلد». إنّ العدد المذكور للوفد، وهو ثمانية، انفردت به هذه الرواية فقط. وفي هذا الشق بالذات، تميّز نصّ ابن خلدون بالاختصار، حيث جاء فيه: «ثم صابروا إلى آخر السنة - 554هـ - حتّى جهدهم الحصار ثم استامنوا الى عبد المومن». وأمّا التيجاني، فإنّه فصلّ فيه على غرار ابن الأثير، وفي ذلك أفاد: «ونزل في اواخر ذي الحجة عشرة من فرسانهم فوقفوا بين يدي عبد المومن وسالوه الامان لمن بها في الانفس والاموال وان يُسمَح لهم بالخروج منها»⁽⁷⁰⁾.

وتدلّ النصوص العربيّة أنّ الخلاف بين الطرفين - النورماندي والإسلامي - لم يُحسم في لقاء واحد، وإنّما استغرقت المفاوضات أشواطاً عدّة، حاول ربّما عبد المومن أثناءها فرض موقفه على النورمان الذين ظهروا أمامه بمظهر الضعف والذلّ والمسكنة، والذي تجلّى من خلال ليونة خطابهم الرامية إلى استعطافه واسترضائه. وفي بيان لهذا المشهد، قال ابن الأثير : «فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يتردّدون اليه اياما ويستعطفوه بالكلام اللين». وتوجد نفس الفكرة عند النويري حيث ورد فيها النص الآتي : « فعرض عليهم الإسلام، فأبوا ولم يزالوا يستعطفونه حتّى أجابهم وأمنهم». وأشار صاحب الحل

70- ضمن المكتبة الصقلية : الكامل، ص307 : الحل الموشّية، ذيل، ص63 : العبر، ص506 : رحلة النيجاني، ص402 : وانظر أيضاً : نهاية الأرب، ج.24، ص173 : البيان، ج.4، ص62.

الموشية، إلى هذا الخطاب بقوله : «فقالوا له يا امير المؤمنين انت الموجود في كتبنا أنك تملك الارض وغرضنا الخروج عن البلاد». وفي هذا السياق، ذكرت رواية ابن خلدون ما يلي : «فعرض عليهم الاسلام فابوا ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى آمنهم». وأما رواية التيجاني، فإن نصّها احتوى على شيء من التفصيل، كان مفاده : «فعرض عليهم الاسلام فقالوا ما جينا لهذا وإنما جينا نطلب فضلك وترددوا اليه اياما وقالوا ما عسى المهديّة ومن فيها من الفرنج بالنسبة الى ملكك العظيم وامرك الكبير وان نعمت علينا كنّا ارقائك في بلادنا»⁽⁷¹⁾.

ومن جانب الملك النورماندي غليوم الأوّل، فكانت ردّة فعله، إزاء الوضعيّة المؤلمة لأتباعه النورمان في المهديّة، أنّه وجّه تحذيرًا شديدًا لعبد المومن، يتوعّده بتنفيذ القصاص في حقّ المسلمين بصقليّة، في حال تعرّض النورمان بالمهديّة للأذى و الهلاك. وعبر ابن الأثير بوضوح عن هذا الموقف، فورد عنه ما يلي : «وكان صاحب صقليّة قد قال ان قتل عبد المومن من اصحابنا بالمهديّة قتلنا المسلمين بجزيرة صقلية واخذنا حرمهم واموالهم»⁽⁷²⁾. ويؤكد النويري⁽⁷³⁾ هذه الفكرة بخلافها مضموناً وتركيباً ممّا يُشير إلى أنّ اقتباسها كان من ابن الأثير.

وعلى كلّ، فلم يلبث أن توجّحت المحادثات، بتزول عبد المؤمن عند رغبة الوفد النورماندي وهي السماح لأهل المهديّة من النورمان بمغادرة المدينة إلى صقلية مع توفير كلّ شروط الحماية والأمان لهم. لكن هل يأتي رضوخ عبد المؤمن لمطالب الوفد النورماندي، استجابة لتهديد الملك غليوم الأوّل؟. إنّ

71- في المكتبة الصقلية : الكامل، ص307 : الحلل الموشية، ذيل، ص63 : العبر، ص506 : رحلة النيجاني.

ص402 : وانظر أيضًا : نهاية الأرب، ج.24، ص173.

72- الكامل، في م-ع-ص. ص.307-308.

73- نهاية الأرب، ج.24، ص173.

التيحاني⁽⁷⁴⁾، ذكر تفسيراً لهذا الموقف وهو بالتأكيد لا يمثل الحقيقة في الميدان، وفي ذلك قال: «فراى منهم كملاً في الاجسام وتؤدّة في الكلام فاعطاهم ما ارادوا». على أنّ اتفاق التفاهم، لم يكد يتم بين الطرفين، حتّى أخذ النورمان في اجلاء مدينة المهديّة، بعد أن نفذ عبد المؤمن الوعود التي قطعها لهم. و الواقع أنّ خروج النورمان من المهديّة كان انتصاراً باهراً لعبد المؤمن وثمره طبيعية، لحصار طال أمده واشتدّت وطأته على الجيش الإسلامي الذي قاسى هو الآخر ضنكاً و كرباً ثقلين، جرّاء الأهوال والأتعاب. لكن إذا كان فقدان النورمان للمهديّة، يشكّل نكسة مؤلمة لهم إلا أنّ مصيبة أخرى، قد حاقت بهم في البحر، بسبب تعرّضهم لعاصفة هوجاء، أتت على معظم مراكبهم ومن فيها. وفي صباح اليوم العاشر من شهر محرّم سنة 555هـ/21 جانفي 1160م، دخل عبد المؤمن مدينة المهديّة ظافراً منتصراً، بعد أن رزحت تحت الحكم النورماندي اثني عشرة سنة. واشتهر هذا العام، عند المسلمين، باسم «سنة الأحماس».

وليس هناك من شكّ، أنّ هذا الحدث، يُعتبر محطة مفصليّة في تاريخ إفريقيّة لكونه يُقرّر النهاية المحتومة للوجود النورماندي في المغرب الإسلامي، كما يقضي على آمال وأطماع النورمان التوسعيّة في هذه المنطقة، وعليه فإنّ مثل هذا الحدث، قد تعرّضت له بين التفصيل النسي و الإيجاز، كلّ المصادر الإسلاميّة المهتمّة بتاريخ إفريقيّة في هذه الحقبة الزمنيّة. وعن هذا الموضوع، أفادت رواية ابن الأثير بالنصّ التالي : «فاجأهم الى ذلك وآمنهم واعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق اكثرهم ولم يصل منهم الى صقليّة الا نفر اليسير... فاهلك الله الفرنج غرقاً وكان مدّة ملكهم المهديّة اثني عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهديّة

74- رحلته. في م-ع-ص. ص 402.

بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسمّاها عبد المومن سنة الاحماس». ولم يختلف هذا المضمون، عمّا ذكره النويري من تفصيل في الموضوع، فيقرأ فيه : « ولم يزالوا يستعطفونه حتّى أجابهم وأمنهم. وأعطاهم سفناً فترلوا فيها. وساروا إلى جزيرة صقلية وكان الفصل شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل إلى صقلية إلا القليل... فأهلك الله الفرنج غرقاً وكان مدّة استيلاء الفرنج على المهديّة اثنتي عشرة سنة ودخل عبد المؤمن مدينة المهديّة بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة ». ونفس الحقائق تقريباً، أوردها ابن خلدون و التيجاني. وعن ذلك، جاء في كتاب العبر : «حتّى آمنهم واعطاهم السفن فركبوا فيها وكان فصل الشتاء فهاال عليهم البحر فغرقوا ولم يفلت منهم الا الاقلّ ودخل عبد المومن المهديّة في محرم سنة خمس و خمسين لثنتي عشرة سنة من ملك الفرنج». وفي رحلته، قال التيجاني : «فاعطاهم ما ارادوا وجهّزهم في سفن الى بلادهم وكان الفصل شتاء فلما قربوا الى صقلية هال البحر عليهم فهلك اكثرهم وتسلم عبد المومن المهديّة وعاد اليها الإسلام في يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين»⁽⁷⁵⁾.

ويؤكد المراكشي، أخبار هذه الحلقة الأخيرة، المعبرة عن انقضاء حكم النورمان بمدينة المهديّة، لكن دون ضبط إطارها الزمني المعروف. وعنّها أفاد نصه : «ثمّ افتتحها عبد المومن رحمه الله بعد ان امن النصارى الذين بها على انفسهم على ان يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المومن واصحابه المهديّة فملكوها»⁽⁷⁶⁾ ووقف صاحب الحلل الموشية عند هذه النهاية، ووضّح بقوله : «فكتب اليهم الامان بذلك وخرجوا على البحر

75- في المكتبة العربيّة الصقلية : الكامل. ص-307 308 : العبر. ص506 : رحلة التيجاني. ص-402 403 : وانظر أيضاً : النويري: نهاية الأرب. ج. 24، ص173.
76- المعجب. في م-ع-ص. ص320.

الى صقلية فدخل الخليفة عبد المومن المهديّة سنة خمس وخمسين وخمسمائة»⁽⁷⁷⁾.
 وثمة مؤرّخون مسلمون، اشاروا إلى هذا الفتح دون التعرّض إلى أيّ تفصيل،
 منهم أبو بكر بن عليّ الصنهاجي المكنّى «بالبيذق»، وهو معاصر لعبد المؤمن
 - توفي حوالي 555هـ/1160م - حيث عبّر عنه بقوله : «ونزل على المهديّة،
 وكان فيها الروم فأخذها بعد الحصر و المجانيق»⁽⁷⁸⁾. واتسمت رواية ابن أبي
 دينار، بطابع عام، فتضمّنت النصّ الآتي :

«ولم تزل هذه البلاد» بيد اللعين الى أيّام امير المؤمنين عبد المومن بن
 عليّ فاستنقذها من ايديهم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وردّ الامير حسن إلى
 المهديّة»⁽⁷⁹⁾. وذكر ابن خلكان (عاش في القرن 7هـ/13م)، هذا الحدث أيضًا،
 فقال : «ثمّ أنّ عبد المومن وصل الى المهديّة وملكها بعد جهد جهيد وكان دخوله
 إليها بكرة يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة»⁽⁸⁰⁾. وفي رواية ابن ابي
 زرع الفاسي، جاء هذا النصّ : «وشرع في قتالها حتّى انتزعها من ايدي الروم
 وذلك في سنة خمس وخمسين وخمسمائة... وقيل كان تملك عبد المومن على
 المهديّة وفتحها لها يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين وخمسمائة»⁽⁸¹⁾.

وقد تناول هذه الخاتمة أيضًا، كلّ من ابن عذارى وأبي الفداء والزركشي
 وحاجي خليفة حيث ورد في البيان⁽⁸²⁾ ما يلي : «وفي سنة 555هـ دخل ابو محمد

77- الحلل. في ذيل م-ع-ص. ص.63.

إشارة إلى هذا الحدث كان قد ذكر من قبل. سنة خمس وأربعين وخمسمائة. لكن أماري يعتقد أنّ المؤلّف ينوي
 كتابة خمسين بدل أربعين. نفسه. هامش رقم 1.

78- المصدر السابق. ص.146.

(*) يُقصد بها. المدن التي احتلّها الملك النورماندي. روجر الثاني. كجزيرة جربة و سفاقص و طرابلس و زويلة و
 المهديّة.

79- المؤنس. في م-ع-ص. ص.540.

80- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان. في م-ع-ص. ص.643.

81- القرطاس. في م-ع-ص. ص.404.

82- في م-ع-ص. ص.374. وانظر أيضًا : ج.24، ص.62.

عبد المومن مدينة المهديّة صلحاً واستولى الموحدون عليها في العاشر من شهر محرّم»، وذكر أيضاً: «وطلبوا الخروج بأمان إلى بلادهم فمن عليهم بمراهم وأخرجهم منها وطهر الله بها صقع أفريقية و الزاب وتخلد له عنده جزيل الأجر والثواب». وفي كتاب المختصر⁽⁸³⁾، جاء هذا النص: «وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة... وبقيت في أيديهم الى هذه السنة ففتحها عبد المومن فكان ملك الفرنج المهديّة اثنتي عشرة سنة تقريباً». وفي الحديث عن هذا الانتصار الإسلامي الهام، ذكر كتاب «أولّية بعض الدولة الموحدية»⁽⁸⁴⁾ الإشارة الآتية: «وكان دخوله لها في سنة خمس وخمسين من محرّم». وتحدّث ياقوت الحموي⁽⁸⁵⁾ هو الآخر، عن هذا الفتح، فجاء عنه: «وملك الافرنج افريقية اثنتي عشرة سنة حتّى قدمها عبد المومن فاستنقذها منهم في يوم عاشوراء سنة 555هـ». وأمّا حاجي خليفة، فإنّه أدرج هذا الحدث ضمن سنة 554هـ/1159م. وعن ذلك، ورد في مؤلفه «تقويم التواريخ»⁽⁸⁶⁾، ما يلي: «سنة 554 كرفتن (اشولى) عبد المومن حصار مهديّة را از فرنك».

هكذا حقّق عبد المومن، باسترجاع المهديّة من قبضة النورمان، فوزاً عظيماً ونصراً مبيناً، بعد «جهد جهيد»، كما أوماً إلى ذلك ابن خلكان⁽⁸⁷⁾، وحصار طويل و مضن، ذاق جنوده أثناءه، مرارة الإرهاق والقلق. لكن استناداً إلى رواية البيهقي⁽⁸⁸⁾، فإنّ هذه العملية العسكرية الشاقّة، لم تكلف الجيش الموحدى، سوى خسائر بشريّة محدودة. وقد عبّرت عن ذلك بما يلي: «و لم يمّت فيها من الموحدين

83- في م-ع-ص. ص-417 418.

84- في م-ع-ص. ص-523.

85- معجم البلدان. الجزء الأوّل. ص-273.

86- في م-ع-ص. ص-525.

87- وفيات الأعيان. في المكتبة الصقليّة. ص-643.

88- المصدر السابق. ص-147.

سوى أبي عبد الله بن أبي بكر بن يحيى». الواقع أنّ مثل هذا الخبر، لا يمكن أخذه بمأخذ الجدّ، لتعارضه مع قوانين وحقائق المواجهات العسكريّة التي تفرض سقوط الضحايا كلّما استحكم التّزال وطال أمدّه وآواره. و أمّا ياقوت الحموي، فإنه عبّر عن الطابع السريع الذي اتخذته هذه الحملة، فذكر: «وبقيت في يد الأفرنج اثنتي عشرة سنة حتّى قدم عبد المؤمن في سنة 555 إلى إفريقية فأخذ المهديّة في أسرع وقت»⁽⁸⁹⁾.

وعلى أثر هذا الانتصار، وجب على عبد المؤمن، الاهتمام بضبط مصير المدينة وتنظيم شؤونها بما يكفل لها الدّعة والاستقرار. ومن ذلك، اتخذ هذا الأخير مجموعة من الإجراءات الضروريّة، توجد موثقة في المصادر الإسلاميّة. وعن هذه الصفحة من تاريخ المهديّة والمجسّدة للحلقة الأخيرة في مسار عودة الحكم الإسلامي إلى هذه المدينة، قال ابن الأثير: «وأقام بالمهديّة عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها إقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهديّة أوّل صفر من السنة إلى بلاد الغرب». وعند هذه الجهود، وقف أيضا النويري، لكن يتضح أنّ روايته كانت مقتبسة من نصّ ابن الأثير حيث تضمّنت ما يلي: «وأقام بالمهديّة عشرين يوما. ورتّب أحوالها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والسلاح والعدد والرجال واستعمل عليها أبا عبد الله محمد بن فرج. وجعل معه الحسن بن علي بن يحيى الذي كان صاحبها. وأمر أن يقتدي برأيه في أفعاله. وأقطع الحسن بها إقطاعا

وأعطاه دوراً بالمهدية. ورثب لأولاده وعبيده أرزاقاً. ثم رحل عبد المؤمن من المهدية في غرة صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة». ويُفهم من هذين النصين، أنّ عبد المؤمن بوّ الحسن الزيري، منزلة عالية ووفر له كلّ أسباب العز والكرامة، لكن لم يُعدّ له عرشه. ويُؤكّد ابن خلدون، نفس الحقائق بقوله: «واقام بها عشرين يوماً فاصلح أمورها وشحنها بالحامية والاقوات واستعمل عليها بعض أصحابه وانزل معه الحسن بن عليّ واقطعه بارضها ولأولاده وأمر الوالي ان يقتدي براهي ورجع الى الغرب». وفي نفس السياق، جاءت رواية أبي الفداء، حيث ورد فيها النص الآتي: «فاقام فيها والياً من جهته، وأمره ان يقتدي برأي الأمير حسن ويرجع الى قوله». ويقول أيضاً: «ولما ملكها عبد المؤمن - المهدية - اصلح أحوالها واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها...، فاعاد عبد المؤمن الى المهدية واعطاه بها دوراً نفيسة واقطاعاً. ثم رحل عبد المؤمن عنها إلى الغرب» ويتفق معهم الزركشي حول مصير الحسن، بل يكشف بوضوح مصيره المحتوم وعن ذلك، ذكر نصّه: «و لما دخل عبد المؤمن بمن معه حصن المدينة ... وأمر باصلاح ما ثلم من سورها ... وقدم عبد المؤمن على المهدية محمد بن فرج الكومي وترك معه الحسن بن عليّ الصنهاجي الذي كان صاحبها». ويُؤكّد ياقوت الحموي، هذه النهاية الفعلية للحكم الزيري بالمهدية، حيث أفادت روايته بالنص الآتي: «و ولّى عليها ابا عبد الله محمد بن فرج احد أصحابه، ورثب معه الحسن بن عليّ بن يحيى بن تميم واقطعه قريتين ورجع الى المغرب، و هي الآن بيد الولاة من قبل ولده». وعن هذه المسألة، تبقى رواية ابن أبي دينار، غير واضحة حيث جاء فيها: «وردّ اليها صاحبها الحسن بن

عليّ بن يحيى بن تميم الصنهاجي الذي اخذت منه المهديّة»⁽⁹⁰⁾. ولم تُبين بالضبط، إذا كان الحسن قد عاد إلى المهديّة، ليكون حاكماً عليها أم مجرد مستشار للوالي الجديد، المعين من قبل عبد المؤمن.

وثمة إشارة من الزركشي والتيجاني، إلى عودة الإسلام إلى مدينة المهديّة بعد فتحها، فيما اتسمت رواية المراكشي حول ذلك، بطابع العموم. وعن الزركشي، ورد النص الآتي : «وأقام بها شعائر الإسلام». وقال التيجاني : «وتسلّم عبد المؤمن المهديّة وعاد إليها الإسلام». وأمّا قول المراكشي، فإنّه لم يعن المهديّة فحسب وإنما شمل إفريقية كلّها. وعن ذلك أفاد : «واخرج الفرنج منها - أي إفريقية - والحقهم ببلادهم كما تقدّم فمحا به الكفر من إفريقية وقطع عنها طمع العدو فانتبه بها الدين بعد خوله وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وافوله»⁽⁹¹⁾. الواقع أنّ هذه الإشارة، إذا كانت تنبئُ باندثار الإسلام في المهديّة خاصّة وإفريقية عامّة، في عهد النورمان، فإنّها مُستبعدة قطعاً. لأنّ هؤلاء النورمان، لم يسعوا إلى محو الإسلام ومظاهره في جزيرة صقلية وهي أصلاً، أرض أوريّة ومسيحية⁽⁹²⁾ وكيف يُقبلون على مثل هذا التصرف في بلاد إسلاميّة. ولعلّ هذا الموقف الإسلامي، يُعبّر عن عودة الحكم الإسلامي إلى المهديّة وغيرها من المدن الإفريقية، بعد انقطاعه لمُدّة اثنتي عشرة سنة أو ربّما، يعكس استياء واستنكار مؤرّخي المصادر الإسلاميّة، لسياسة التضييق والاضطهاد التي مارسها الحكم النورماندي أو على الأقلّ، في عهد الملك غلبوم الأوّل، تجاه مسلمي إفريقية وخاصّة بعد أن أخذ خطر الموحدّين يُطلّ برأسه من المغرب الأقصى.

وهكذا أتت المصادر الإسلاميّة إلى نهاية عرضها، لأحد الأحداث المشهورة

90- في المكنية الصقلية، الكامل، ص308 : العبر، ص506 : تاريخ أوليّة، ص523 : المؤنس، ص540. وانظر أيضاً: النويري: نهاية الأرب، ج.24، ص173 : معجم البلدان، الجزء الأوّل، ص273-274 : المختصر في اخبار البشر، الجزء الخامس، ص30، 48.

91- في المكنية الصقلية، تاريخ أوليّة، ص523 : رحلة النيجاني، ص403 : المعجب، ص320.

92- تناولت المصادر الإسلاميّة، سياسة التسامح التي نفّذها ملوك النورمان تجاه المسلمين في صقلية.

في تاريخ المغرب الإسلامي عامّة، وإفريقيّة خاصّة، وهو أفول التواجد النورماندي بمدينة المهدية. ولا شكّ أنّ تغطية الكتاب المسلمين لهذا الحدث، يُعدّ إسهامًا ثمينًا في سبيل إبراز واحدة من المحطات المثيرة في تاريخ الصراع الإسلامي المسيحي في محيط البحر المتوسط إبّان العصور الوسطى. كما تشكّل هذه المساهمة، محاولة ملموسة لبناء الذاكرة الجماعية الإسلامية وإثراء لميدان تدوين التاريخ في العالم العربي والإسلامي على حد سواء. لكن، على الرغم ممّا تمثله هذه المحاولة من وجهة نظر إسلامية بحثية، إلّا أنّها غدت مرجعًا أساسيًا، لا غنى عنه، لأغلب الدارسين الأوروبيين المعاصرين والمهتمين بتاريخ إفريقيّة في هذه الفترة التاريخية، وهو ما يمنح هذه المصادر الإسلامية، قيمة وصدارة في دراسة موضوع العلاقة بين الضفتين الشماليّة والجنوبيّة للمتوسط. كما أنّ هذه المصادر ساهمت في الكشف عن إحدى الصفحات المشرقة في تاريخ دولة الموحدين، حيث حقق في ظلها، زعيمها الخليفة عبد المؤمن، انجازا تاريخيًا رائعًا، لا يتمثل في استأصال شأفة الحكم النورماندي بمدينة المهدية فقط وإنما يعتبر خطوة حاسمة في مشروع توسيع نفوذ الموحدين وتأكيدهما في المغرب الأدنى ويؤشر أيضًا إلى نجاح هذا الخليفة في استكمال بناء المغرب الإسلامي الكبير و توحيدة تحت صولجان واحد، صرح استراتيجي، راحت كل الجهود المعاصرة لبعثه مجددًا، أدراج الرياح.

البيبلوغرافية :

المصادر والمراجع العربية :

- ابن الأثير : (ت. 630هـ/1238م).
- * الكامل في التاريخ، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- أماري (مخائيل) :
- * المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- * تاريخ مسلمي صقلية، إعداد د. محب سعد إبراهيم، لي مونييه، فلورنسا (إيطاليا)، المجلد الثالث، 2003م.
- البيدق : (ابو بكر بن علي الصنهاجي، ت. حوالي 555هـ/1160م).
- * كتاب اخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1394هـ/1974م.
- التيجاني : (ابو محمد عبد الله. ت. 869هـ/1464م).
- * رحلته، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- حاجي خليفة : (مصطفى بن عبد الله، ت. 1670م).
- * تقوم التواريخ، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- ابن خلدون : (ت. 808هـ/1406م).
- * كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخير، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- ابن خلكان : (ت. 681هـ/1281م).
- * وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- ابن أبي دينار : (من علماء القرن 12م).
- * المؤنس في أخبار افریقیة و تونس، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.
- روجي لي تورنو.
- حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر، ترجمة الدكتور امين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1982م.
- ابن ابي زرع الفاسي : (ت. 724هـ/1324م).
- * الانيس المطرّب روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، في المكتبة العربية الصقلية، ليسك، 1857م.

- السلوي : (ابو العباس احمد بن خالد الناصري، ت. عام 1897م).
- * كتاب الاستقصا لخبار دولة المغرب الاقصى. الدولتين المرابطية والموحدية، تحقيق وتعليق
- * الاستاذ جعفر الناصري و الاستاذ محمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1954 م،
- الجزء الثاني.
- ابن صاحب الصلاة : (ت. في أواخر القرن 6هـ/أواخر القرن 13م).
- * تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله إمة وجعلهم الوارثين، في المكتبة العربية
- الصفلية، ليبسك، 1857 م.
- عبد الواحد المراكشي : (ت. 620هـ/1223م).
- * كتاب المعجب في تخلص اخبار المغرب، في المكتبة العربية الصفلية، ليبسك، 1857م.
- ابو عبد الله الزركشي.
- * من تاريخ أولية بعض الدول الموحدية و نبوغ الدولة الحفصية، في المكتبة العربية الصفلية،
- ليبسك، 1857 م.
- ابن عذاري المراكشي : (عاش في القرن 7هـ/13م).
- * البيان المغرب في اخبار الاندلس و المغرب. قسم الموحدين، الجزء الرابع، دار المغرب
- الاسلامي، بيروت، لبنان، 1985م.
- ابو الفداء : (ت. 732هـ/1331م).
- * كتاب المختصر في أخبار البشر، اصدار : دار البحار، لصاحبها : اديب عارف الزين،
- عام 1380هـ/1960م، الجزء الخامس(الدولة العلوية في مصر والحروب الصليبية).
- * في المكتبة العربية الصفلية، ليبسك، 1857 م.
- مجهول.
- * كتاب الحلل الموشية في ذكر اخبار المراكشية، في المكتبة العربية الصفلية، ليبسك،
- 1857م.
- النويري : (ت. 732هـ/1332م).
- * نهاية الأرب في فنون الأدب، في المكتبة العربية الصفلية، ليبسك، 1857م.
- ياقوت الحموي : (بن عبد الله، ت. 626هـ/؟؟؟؟م).
- * معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت،
- لبنان، 1410هـ/1990م.

المصادر والمراجع الأجنبية :

-Chalandon(F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Librairie Alphonse Picard et fils, Paris, T. I, II, Paris, 1907.

-Hady(Idris Roger),La Berberie Orientale sous les Zirides, Librairie d'Amérique et d'orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1962, Tome

Premier.

-Siragusa(G. B.), Il Regno di Guglielmo I in Sicilia, Palermo, 1929.

==00==

